أربعة فصول من رواية

بقلم الدكتور سهيل ادريس

— ٤ —

ثلاثة (*) أيام بطولها ، تلزم مكتبك ، تكاد لا تفارقه ، وقلبك يخفق كلما رن جرس التلفون .. الا تحس من هذا ببعض المذلة ؟ انك لا تغادر المكتب الا حين يهبط الليل ، ولا تقصد المصيف الذي نزل فيه ذووك ، منذ اول الصيف ، الا في احدى السيارات الاخيرة التي تنقل الركاب الى « حمانا » ، فكيف تريد الا يستغرب اهلك تاخرك في هذه الايام الثلاثة ، بعد ان كنت تقصد الجبل ظهرا ، وتقضي فيه بقية يومك تقرأ او تكتب او تتنزه ؟

وظهر اليوم الرابع يرن جرس التلفون ، ويطلب منه ان يتحدث مع « قرنايل » . ويتساءل عجبا : « قرنايل ؟ » انها المصيف الذي يجاور حمانا ، ولا يبعد عنه اكثر من نصف ساعة سيرا على الاقدام . وما يلبث ان ينبعث في سمعه صوت دافيء يقول :

— الاستاذ سامي ؟ انا رفيقة شاكر .

وانباته انها وصلت صباح ذلك اليوم مع زميلتين لها ، فاستأجرن دارا صغيرة مؤقتة تقوم على احدى روابي « قرنايل » ، وانشغلن قبل الظهر بترتيب البيت وتنظيفه .

وقاطعها بلهجة لاهثة :

— ولكنك لا تعرفين انني اصطاف مع أهلي على بضع خطى من قرنايل ...

قالت : — عجبا ... أين ؟

— في حمانا .

فارتفع صوت قهقهتها الرقيقة :

— يا للمصادفة الغريبة !

قال وهو يجهد في تهدئة نفسه :

— يبدو اننا متقاربان اكثر مما كنا نتصور !

فظلت تضحك في التلفون ، وسمع صوته يقول :

— هل انت على استعداد لاستقبالي مساء اليوم ؟

فكان جوابها ان اعطته عنوان البيت واردفته بعبارة :

— الى اللقاء !

وسارع الى المحطة يستقل السيارة الى المصيف . واراد ان يقيل، بعد تناول الغداء ، على مألوف عادته كل يوم ، فلم يغمض له جفن .

وانتظر حتى خفت حرارة الشمس ، فخرج من بيته متجها الى « قرنايل » سيرا على القدمين . ولاحظ ان لديه سعة من الوقت قبل ان يحل المغيب ، فحاول ان يبطيء في سيره ، ولكن قدميه كانتا تسوقانه في غير ما ابطاء . وانحرف ذات لحظة الى غابة صنوبر كانت تحف الطريق العام ، فجلس في ظل شجرة كبيرة ، وهو يود ان يقضي فترة من الزمن ، يستمتع بالهدوء ويتنشق عبير الغابة ورائحة الصمغ الصنوبري التي كان يحبها . ولكنه ما لبث ان نهض ، كانه انما جلس على شوك .

وبلغ « قرنايل » والنهار ما يزال في تلألئه ، فعرج على مقهى صغير يشرف على الطريق العام كان يغص بالرواد ، وطلب زجاجة شراب مثلج ، فأخذ يتمصصها على مهل ، حتى اذا افرغها مال عليه الخادم فأخذها . واحس ضيقا وهو ينظر الى الطاولة امامه فارغة . لا بد ان صاحب المقهى والخادم يتساءلان الآن : لماذا هو جالس بعد ؟ الم يشرب زجاجته ؟ ليخل مكانه اذن لسواه : الا يرى ان المقهى غاص ؟

واشار الى الخادم :

— فنجان قهوة . سكر زيادة .

فانحنى الخادم ومضى ، ولكنه ناداه مرة اخرى :

— اغل القهوة جيدا ! مفهوم ؟

— مفهوم يا سيدي .

وحرك كرسيه تحته ، ثم وضع يديه على الطاولة ، واسترخى في جلسته .

وحين دق الباب ، كانت الشمس توشك أن تغيب . وتناول منديله يمسح العرق عن جبينه . ونظر مليا الى الفتاة التي فتحت الباب ، وهو يستحضر ملامح الصورة : انها ليست هي . فقال :

— هل انت زميلة الآنسة رفيقة ؟

فأومأت براسها وقالت :

— وانت ... الاستاذ سامي ؟

فأومأ براسه .

— تفضل بالدخول . انها في غرفتها ، وسوف اخبرها .

وجلس على اريكة من القش في غرفة استقبال صغيرة فيها بضع كراسي وجهاز راديو ، وكانت على الجدار لوحة صغيرة تمثل منظر نهر يجري وفوقه اشجار لعلها اشجار سنديان . وقال في نفسه : « منزل متواضع » ثم اردف : « وهذا افضل » .

ولم يدر لماذا قال في نفسه ذلك .

كان ينظر الى الباب الايسر حين انشق فاطل منه وجه باسم سرعان ما عرف في ملامحه وجه الصورة . وكانت معتدلة القامة ، ريا الجسم ، ممتلئة الصدر . وكان شعرها كستنائي اللون ، مرسلا على كتفيها . ومدت يدها ترحب به ، والبسمة ما تزال على شفتيها ، ولكنه حين حدق في وجهها رأى ان بسمة اخرى كانت في عينيها . عجبا لهاتين العينين كيف تبتسمان !

— اهلا وسهلا بالاستاذ سامي .

قال : — بل انا الذي ارحب بك في بلدنا !

وجلست قبالته وهي تعتذر عن انهن لم يرتبن البيت كما ينبغي بعد . وما لبثت الفتاة التي فتحت له الباب ان حملت القهوة ، ثم خرجت من احدى الغرف زميلتهما الثالثة التي كانت اقرب الى الطول ، وكانت ضامرة الجسم ، انيقة الملبس .

وجلسوا جميعا يحتسون القهوة ، واخذن يتحدثن عن لطافة جو المصيف وجماله الطبيعي. وفهم انهن سوف يقضين هنا الشهرين الباقيين من اشهر الصيف ، وان رفيقتين اخريين قادمتان اليهن عما قريب . وقال ضاحكا :

— وعلى هذا ، فبوسعكن ان تفتحن مدرسة هنا !

فرحن يقهقهن ، وقالت رفيقة وهي تتنهد :

— لا سمح الله ! الا ترانا هاربات من المدارس والطالبات ؟

وفي تلك اللحظة راى احدى الزميلتين تغمز رفيقتها فتنهضان وهما تعتذران بان عليهما ان تقصدا السوق لاستحضار بعض الحاجات والمآكل .

---

* هذه الفصول الاربعة مأخوذة من رواية جديدة للكاتب تصدر قريبا .

واحس بخفق في صدره اذ ألفى نفسه وحده ، وجها لوجه مع رفيقة شاكر . وشعر ببعض الارتباك ، فقال اتفاقا :

ـ اي نعم ... اي جديد لديك ؟

فسألته بصوتها الدافيء المطمئن :

ـ في أي موضوع ؟

ـ لا أقصد موضوعا على التحديد .

وشعر بأن ارتباكه يزداد ، ولكنها قالت :

ـ لقد كتبت شيئا ...

ـ صحيح ؟

ـ نعم ، ولكنه ليس للنشر في مجلتك .

ـ وما هو ؟

ـ انها انطباعات بعد قراءتي روايتك « على ضفاف السين » .

ونهضت فاتجهت الى الغرفة التي خرجت منها ، منذ حين ، ولكنها ما لبثت ان التفتت وهي تقول :

ـ أتعرف اني قرأتها ثلاث مرات ؟

وغمره شعور اطمئنان :

ـ أأعجبتك الى هذا الحد ؟

وكانت قد اولته ظهرها متجهة الى غرفتها ، حتى اذا بلغت بابها ادارت اليه رأسها وقالت بعذوبة :

ـ جدا . انها رائعة ، ولاسيما في القسم الاول .

القسم الاول : انها الفصول التي يصور فيها مغامرات البطل الاولى ...

وعادت وفي يدها رزمة اوراق ، فبسطتها له :

ـ ستقرأها فيما بعد . اما الآن فستقول لي: هل التقيت حقا بجميع هاتيك الفتيات ؟

قال محرجا : ـ انا ؟ أنا لا علاقة لي بالامر ، انني أصف شابا لا...

فقاطعته ضاحكة :

ـ دعك من هذا ، يا استاذ سامي !

ـ أؤكد لك آنسة رفيقة ...

قالت : ـ اولا ، ألا يمكن ان تدعوني باسمي مجردا من « آنسة » هذه ...

فابتسم لها : ـ بلى يا ... رفيقة ! وثانيا ؟

ـ ثانيا ، لا يمكن لكاتب ان يصور بطلا كما صورته اذا لم يكن قد عاش هو نفسه حالات هذا البطل ...

فقال بلهجة أرادها جدية :

ـ يمكن للكاتب ان « يعيش » حالات بطله ، من غير ان يعيشها فعلا !

قالت : ـ آه .. تقصد انه يعيشها في « مختبر » خياله وفنه ؟

ان هذا قد يكون صحيحا ، ولكن لا بد له مع ذلك من نقطة انطلاق حسية، واقعية ، يتخذها بدءا لعمله الفني .

وصمتت لحظة ثم أضافت :

ـ غير أن من يقرأ القسم الاول من كتابك يغدو على يقين من ان القضية ليست قضية عمل فني بقدر ما هي تصوير مخلص وتلقائي لاحداث قد وقعت !

قال في هدوء :

ـ لنفرض أن هذا صحيح ، يا آنسة .. يا .. رفيقة ! فماذا يهمك أنت ، كقارئة ، ان تعرفي اذا كان ما قرأته قد وقع حقا في الحياة ؟ ألا يكفيك ان تقتنعي بامكانية وقوعه ؟

فاجابت بمثل الهدوء الذي تحدث به :

ـ الحقيقة انني كنت قانعة بذلك .. اما الآن وقد التقيت بالبطل شخصيا ، فان السؤال يرد على لساني !

فضحك وقال :

ـ أتعرفين ؟ انك تصلحين نموذجا للبطل الواقعي !

ـ صحيح ؟ اعتقد على كل حال انني واقعية اكثر مني خيالية ..

ـ تلك ميزة لا يتمتع بها كثير من الاوانس .

ورآها تصمت فجاة ، ثم يبدو عليها التردد والحيرة ، وتساله :

ـ ما رأيك في ان نخرج فنتنزه قليلا عبر الغابة المجاورة ؟

قال : ـ كما تشائين ، ولكن ... رفيقتاك ؟

قالت : ـ رفيقتاي ؟ واي شان لنا بهما ؟

ثم استطردت ضاحكة :

ـ أم تعتقد انهما قد صحبتاني لتراقبا تصرفاتي ؟

وعادت الى غرفتها ثم خرجت وعلى كتفيها كنزة صوفية . ولاحظ آنذاك أن ثوبها قد انشق قليلا عند صدرها فحسر عن ظل دقيق لملتقى نهديها الممتلئين .

وحين بلغا الغابة ، كان الليل قد هبط . وسألها اذ دلفا بين الاشجار :

ـ كيف حال غرفتك الصغيرة في اقصى الشمال ؟

فلم ير في الظلام الهابط الا التماع عينيها الباسمتين :

ـ لا بد انها تعاني الآن الوحشة ..

قال في لهجة تعجب :

ـ هي ... الغرفة ؟

ـ ولم لا ؟ انني احس اذ أدخلها كان ذراعين تنفتحان لتضماني !

قال ضاحكا :

ـ طريفة فكرة التواصل هذه بين فتاة ... وغرفة !

وجاءه صوتها هادئا كأنما هو ينبع من الليل :

ـ ألا تعتقد يا استاذ سامي ...

فقاطعها يقول :

ـ و « استاذ » هذه ، ألا يمكن حذفها من قاموسك ؟

فضحكت وتابعت بسرعة ، كأنها كانت تخشى ان تضيع فكرتها :

ـ ألا تعتقد انها فكرة محزنة ، أكثر منها طريفة ؟

ـ لماذا ... محزنة ؟

ـ لان كثيرات من فتيات هذا الشرق يعشقن غرفهن ...

وصمتت لحظة ثم أضافت :

ـ ذلك انهن قلما يلتقين بالرجل ، واذا التقين به ، ففي جنح الظلام ...

وعجب لصوتيهما يقولان معا :

ـ كما نلتقي الان !

وفي الصمت الذي تلا ، ولم يكن يسمع فيه الا صوت اقدامهما على اعواد الصنوبر الجافة ، وازيز بعض حشرات الليل ، استقرت يدها في يده دافئة ، ساكنة .

ـ رفيقة ...

فاحس وجهها يلتفت اليه :

فنـــدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتـــدلة

بادارة : حلمي المباشر

ـ نعم ...
ـ ألا تظنين اننا التقينا قبل الآن ؟
ـ انا ؟ لقد لقيتك مرارا في ((على ضفاف السين)) .
ـ لا اقصد ذلك ...
فظلت صامتة ، واحس بكفها تغادر كفه ، ثم شعر بها تأخذ ذراعه فتشبكها بذراعها وهي تقول ، مغيرة الحديث :
ـ ومع ذلك ، فانني احب الليل . غرفتي والليل .
وظل صوتها ينثال دقيقا ، دافئا :
ـ كثيرا ما كنت أجلس الى نافذتي ، وقد أطفأت مصباحي ، وكنت أتوقع بين لحظة ولحظة ان ينبع من جوف الليل فارس يحملني ويطير بي ...
فضحك وضغط بذراعه على صدرها وقال :
ـ أتنسين ما قلته لي ، منذ حين ، من انك واقعية .. اكثر منك خيالية ؟
قالت من غير تردد :
ـ أود ان اكون واقعية .. ولكن اذا لم يكن الواقع مسعفا ؟
ثم أردفت :
ـ اننا في الحقيقة لا نعيش الواقع ، بل نتخيله تخيلا .
وشعر بذراعها تشد ذراعه ، وهي تتوقف عند جذع شجرة صنوبر ، ثم تقول بلهجة ضعيفة :
ـ لقد تعبت من السير . فلنجلس هنا قليلا ..
قال : ـ كما تشائين .
وسمعها تردف :
ـ ثم اننا سنكون أقرب الى الارض : وسنشم رائحتها ورائحة العشب المسكر .
وجلسا مستندين الى جذع الشجرة . وكانت كتفها لصق كتفه . وسمعها تتنهد :
ـ الليل والارض .. انني اغمض عيني .
وما لبث أن شعر برأسها يثقل على كتفه ، فأحس بشفتيه تلامسان شعرها .
ورفعت رأسها وهي تقول :
ـ سامي ... كيف كنت تقبلهن ، فتيات باريس ؟
فأحس الشهوة تتمطى في جسمه ، وانفتحت شفتاه تقولان :
ـ هكذا ...
وانقضتا على شفتيها .
وظلتا تتململان فوق فراش شفتيها دقائق . ثم نهض وهو يقول :
ـ رفيقة .. ليس من التعقل ان نبقى هنا . انني أخشى ان يدهمنا أحد ...
قالت : ـ صحيح .. اننا لسنا في غابة بولونيا بباريس ..
قال ضاحكا وهو يعود بها الى الطريق العام :
ـ يبدو انك حفظت الكتاب عن ظهر قلب !
فلم تجب ، وعادت تشد ذراعه الى صدرها . وظلت على صمتها حتى بلغ بها البيت ، فودعها وهو يقول :
ـ متى أراك ، في مكتبي ؟
قالت : ـ غدا .
وابتسمت عيناها ، ثم دخلت البيت .

ـ ٦ ـ

ـ انك تتثاءب للمرة الثالثة في مدى خمس دقائق !
فأحس بعض الارتباك .
ـ هل سهرت كثيرا مساء الامس ؟
فتردد لحظة قبل أن يقول :
ـ لا .. غير اني اعتدت أن أقيل ولو ربع ساعة ، بعد الغداء .
فسمعها تقول بلهجة جادة :
ـ انني لا أريد ان احرمك قيلولتك العزيزة ...
ثم سارعت تضيف :
ـ وأين تقيل ؟ في المكتب ؟
فانفجر ضاحكا :
ـ ولماذا ؟ أيكون المكتب للنوم ؟
قالت رفيقة : ـ انك اذن تصعد الى الجبل ؟
ـ اعتدت ان أصعد الى الجبل في الصيف عند الظهر ، ليتاح لي ان أتمدد قليلا بعد الغداء . ولكن ليس ضروريا على الاطلاق ان اصعد الآن الى الجبل ...
قالت بلهجة لا تخلو من خبث :
ـ ولكن قيلولتك ... كيف تضحي بها ؟
فقال بهدوء ، كأنما ليتشفى :
ـ لن أضحي بها . ان لنا بيتا هنا طبعا . هل تظنين ان اسرتنا في الشتاء تبيت في العراء ؟ ..
فلم تجب بكلمة . واستطرد يقول :
ـ ان بامكاننا ان نقصد البيت ، فآخذ لنفسي قسطا من الراحة ، بينما تقرئين انت في غرفة الاستقبال .
فسألته : ـ أليس في البيت أحد ؟
قال : ـ لا . انهم في الجبل .
وسارعت تقول :
ـ لا ، لا . لن أذهب معك وحدي الى بيتك !
وأسقط في يده . وبدأ الارتباك يصعد العرق الى جبينه ، ثم قال فجأة :
ـ كان ينبغي ان تصطحبي زميلتيك الفاضلتين !
وأحس ضحكة في حلقه تفرج عنه . لقد رد لها سخريتها . وقالت باسمة :
ـ على أي حال ، تذهب أنت فترتاح ، واهبط انا السوق فابتاع بعض الحاجات .
قال وهو يحس انه يكبت استياءه :
ـ حل ممتاز ... وبعد الظهر ...
فأتمت عنه :
ـ نلتقي ثانية اذا شئت فنصعد معا الى الجبل ، فتنزل انت في حمانا ، وأواصل أنا الى قرنايل !
فنهض ناشطا وهو يقول :
ـ هيا بنا . يبدو لي انك تملكين حسا عمليا قويا !
ودفع للمطعم الحساب ، ثم غادراه فاستوقف سيارة طلب من سائقها ان يقصد بهما السوق اولا .
وفي الطريق ، رآها تغمض عينيها .
قال : ـ ماذا ؟ هل تشكين شيئا ؟

ـ التتمة في الصفحة ٥٥ ـ

تطلب ((الاداب))
في الجزائر من :
دار الكتاب
لصاحبها السيد خالد القرطبي
نهج كولو غلي رقم ٤ ـ با[illegible]ة ـ الجزائر

اربعة فصول من رواية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

فقالت ، ما يزال جفناها مسبلين :

ـ أحس اني انا ايضا بحاجة الى بعض الراحة .

وسرعان ما مال على السائق يقول له :

ـ الى شارع « الجامعة » .

والتفت اليها فرآها قد فتحت عينيها ، تبسم له بهمـــا . واحس ذراعه تريد أن تضمها ، فأومأت له عيناها الى السائق ، فسقطت ذراعه ، واكتفت كفه بحبس أصابعها الدقيقة بين أصابعه .

وحين فتح باب البيت ، هبت عليه رائحة رطوبة وظـلام . فمضى الى غرفة الاستقبال يفتح نوافذها ليدخل اليها الحرارة والنور . ورأى رفيقة تجلس قرب احدى النوافذ ، وتتناول عن رف للكتب بعض اعـداد قديمة من « الفكر الحر » وتأخذ في تصفحها . وحين قصد غرفته يفتح نوافذها ، سمع صوتها يناديه ، وقالت له وهي تزم عينيها مبتسمة :

ـ أما زلت تحسن صنع القهوة التركية ؟

فلم يدرك اولا مقصدها ، ثم ضحك قائلا :

ـ تقصدين بطل « على ضفاف السين » ؟

فقالت بحركة عريضة من ذراعيها :

ـ أوه ... نعم ، نعم ، لا أقصد غيره !

هل تجد شيئا ترد به ؟ قل لنرى :

ـ انك تصرين على اني انا البطل !

فأومأت بعينيها ايجابا من غير ان تتحرك شفتاها . فقال :

ـ لا . الواقع انك تريدين ان أتقمص شخصية ذلك البطل !

وخشي ان يكون قد آذاها ، ولكنه رأى ان البسمة لم تغـــادر عينيها ، ولاحظ انها قد استرخت في جلستها ، وان جفونها قد ذبلت . واستدار فقصد المطبخ من غير ان يقول شيئا . وابتسم لنفسه : عجبا ! لم تعد بي حاجة الى الراحة ... بل هي التي تحتاج الآن اليها !

وحين عاد بفنجان القهوة الى غرفة الاستقبال ، الفاها خالية . أين اختفت رفيقة ؟

ووجدها بعد ذلك في غرفته ، مستلقية على سريره مغمضة العينين.

ونظر الى صينية القهوة في يده ، فحار ماذا يفعل بها . وظل برهة ينقل نظره بين فنجاني القهوة وذلك الجسد المتمدد في ثوبه . ثم تقدم خطوات ، فوضع الصينية على طاولة قريبة من السرير ، واقبـل يهمس بصوت لم يكد هو يسمعه :

ـ رفيقة ...

فلم تجب . لقد نامت بالفعل ، فدعها اذن ولا تعكر عليها الراحة . انك تستطيع ان تأخذ فنجانك ، فتخرج على مهل الى غرفة الاستقبال ، تنتظر ريثما تفيق . وبسم لنفسه : لقد انقلبـــت الادوار ! وكان يـهم بمغادرة غرفته حين تناهى اليه صوتها هامسا حالما :

ـ أين أنت يا سامي ؟ اين قبلولتك ؟ كنت تموت رغبة فيها !

فشرب قهوته جرعة واحدة ، وانفتل على عجل ، فارتمى بقربها على السريـر .

وقالت له بعد هنيهة :

ـ ان قهوتك التركية لذيذة .

ـ كيف ؟ انك لم تشربيها بعد .

ـ انك تتغابى .

ـ آه ... تقصدين ...

ـ هل كن يجدنها لذيذة ؟

ـ من هن ؟

ـ انك ما تزال تتغابى .

ـ آه ... تقصدين ..

ـ نعم . أجب على سؤالي .

ـ كان ذلك يتوقف ...

ـ وهن ... ماذا كن يسقينك ؟

ـ شمبانيا .

ـ وهل كنت تجدها لذيذة ؟

ـ كان ذلك يتوقف ايضا ...

وسألته بعد هنيهة :

ـ وهذه الشمبانيا .. كيف وجدتها ؟

ـ لذيذة جدا .

ـ أتدري أين عتقتها ؟

ـ لا .

ـ في قبو الحرمان .

ـ ان لها نكهة غريبة .

ـ نعم ، نكهة الثمرة توشك ان تتلف .

ـ ولها عطر خاص .

ـ نعم ، عطر الزهرة تكاد تذبل .

وقالت له بعد هنيهة :

ـ أجل . امتص رحيقهما . ذوبهما بين شفتيك .

ـ أخشى ان أدميهما .

ـ سيكون لهما مذاق أعذب .

ـ ولكنك ستتألمين .

ـ أبتهل اليك . أوجعني .

ـ أخشى بعد ذلك الا تشفي .

وقالت له بعد هنيهة :

ـ انني أحب يديك .

ـ لماذا ؟

ـ لانني لا أراهما .

ـ عجبا !

ـ تعصرانني ولا أراهما .

ـ تفضلين ان تلامساك بهدوء ؟

ـ أحس اظافرهما احيانا تغرزان في بشرتي .

ـ أيؤلمك هذا ؟

ـ ألما عذبا . ولكن ...

ـ ماذا ؟

ـ لماذا لا تحاول ان تحطمني بهما ؟

ـ ...

ـ هل نفدت قوتهما هناك ؟

وقالت له بعد هنيهة :

ـ ان شفتيك تخيفانني بعض الشيء !

ـ ماذا تقولين ؟

ـ كلا . في اول الامر لم اخف منهما .

ـ وبعد ذلك ، لماذا خفت منهما ؟

ـ كانتا اولا كمصفور صغير تنقدان الحب هنا وهناك .

ـ وفيما بعد ؟

ـ تحولتا الى حيوان صغير .

ـ كيف ؟

ـ حيوان يلعق ويقضم ويعض .

ـ ولكن هل يكون هذا مخيفا ؟

ـ لا . وانما خفت حين سمعت صرختي .

ـ بم احسست ؟

ـ أن بامكاني ان اتحول الى مخلوق آخر .

ـ وهل بروقك ذلك ؟

ـ بل هو ما يخيفني .
ـ ولكن ذلك ممتع : أن يتحول أحدنا الى مخلوق آخر !
ـ ساضيع وقتا طويلا في التعرف اليه .
ـ بل تكتشفين بذلك انسانا جديدا .
ـ انني لم اكتشف بعد نفسي بما فيه الكفاية .
ـ ولكنك حين ...
ـ أرجوك ، كفى : هل تقصد الى تحليلي ؟
ـ ولم لا ؟
ـ انا شخصيا ، ساحللك بعد ان نفترق .
ـ ماذا تقصدين ؟
ـ ان مجال التفكير والتحليل واسع حين لا تستغرقنا الحياة .
ـ وحين تستغرقنا ؟
ـ ينبغي ان نستسلم لامواجها تغرقنا .
ـ اذن لا بد ...
ـ أتراك لن تصمت ؟ أعطني شفتيك واسكت .
ثم قالت له :
ـ لقد قتلتني .
ـ هل انت سعيدة ؟
ـ انني ميتة .
ـ لا تبالغي .
ـ ميتة . هالكة . مقتولة .
ـ اذن ، خذي قسطا من الراحة . نامي .
ـ اذا نمت هنا ، فماذا يبقى لي ان افعل في غرفتي الصغيرة ؟
ـ تساهرين الليل وتحلمين .
ـ ثم انام وانا ابكي .
واحس بذراعيها حول عنقه ، ونظر الى وجهها فراى فيه عينين لا يعرفهما .

ـ لم تقل لي ...
ـ ماذا ؟
ـ هل اعجبتك ؟
ـ من اية ناحية ؟
ـ هل احسن مثلهن ... ؟
ـ مثل من ؟
ـ اوه ...
ثم صاحت به :
ـ هل احسن صنع الحب مثل سوزان وليليان ومرغريت و ... ؟
فقهقه ، ثم احس ضحكته تيبس وتجمد على شفتيه ، وشعر بيديه تتلاشيان عن صدرها ، وشعر باصابعه تسترخي، وشعر بركبتيه تنهاران. سوزان وليليان ومرغريت . هكذا اذن . أشباح في عينيها . خيالات في ضميرها . شياطين في جسدها . شياطين تخرج منها ، كل ليلة ، في عتمة الغرفة الصغيرة الزرقاء ، فتقيم مهرجان رقص ليلي أحمر ، تتلوى السنة من لهب ، وتنطلق همسا من جنون ، وفي آخر الليل ، تعود الى جسدها متعبة مرهقة ،فتحس جسدها متعبا مرهقا ، وتستسلم لسلطان النوم ، لتستطيع في الليلة التالية ان تحضر مهرجان الرقص الاحمر . سوزان باريس . ليليان باريس. مرغريت باريس . وانت ايضا ؟ تعيشين في باريس ، تموتين في باريس ؟ سوزان وليليان ومرغريت... ورفيقة .
ونهض يرشف الفنجان الآخر .
كان باردا . وكان مرا .

ـ ١٣ ـ

قال وهو يدفع لها مجلة فرنسية شهرية :
ـ ان فيها قصة جميلة . حاولي أن تترجمي منها بضع صفحات نتدارسها معا في لقائنا القادم .
وكان بوده ان يحدد لها موعد هذا اللقاء ، ولكنه آثر ان يدع لها هي ان تفعل ذلك . انه يريدها ان تلزم نفسها . لا ان يلزمها هو .
وفيما كانت الهام راضي تقرأ الاسطر الاولى من القصة الفرنسية ، سالها :
ـ لقد انتقلت اذن الى العاصمة . أيعني هذا أنك لن تقصدي بعد بعلبك ؟
قالت وهي ترفع عينيها عن المجلة :
ـ في نهاية كل اسبوع فقط . اما بقية الاسبوع ، فسانزل فيه ضيفة على اختي هنا .
وعادت تقرأ في القصة ، ثم ما لبثت ان قالت :
ـ يبدو لي أن ترجمتها لن تخلو من صعوبة ..
فضحك وقال :
ـ لو لم يكن الامر كذلك ، لما كانت بك حاجة الى دروس في الترجمة .
فاكتفت بالابتسام . ثم نهضت وهي تقول :
ـ ينبغي الآن أن أذهب .
ولكنها لم تمد له يدها ، فبسط كفه في اتجاهها ، بعد ان نهض وراء مكتبه . وحين صافحته ، ضغط على راحتها واستبقاها في يده ، فاذا بها تسحبها على عجل وقد طفر الدم الى وجهها . وسألها وهو يحس رعشة في صوته :
ـ لم تقولي متى نلتقي لدرس الترجمة الاول ...
قالت وهي تضم كتبها الى صدرها :
ـ سأحاول هذا المساء ان أترجم بضع صفحات ، وربما جئت غدا .
ثم سارعت تضيف كأنما خشيت ان يفسر قولها على غير حقيقته :
ـ انني مشوقة لمعرفة قدرتي على الترجمة والاستماع الى ملاحظاتك.
ثم انني سأقصد بعلبك بعد غد .
ـ حسنا . سأنتظرك اذن بعد ظهر الغد .
قالت : ـ لا ، ليس بعد الظهر . وانما حوالى السادسة مساء . ان عندي في الاكاديمية ساعة فراغ بين السادسة والسابعة .
فأومأ برأسه علامة الموافقة .
وحين خرجت ، أحس بشفتيه تفتران اذ تذكر سؤالها :
ـ كم تريد تعويضا للدرس الذي يستغرق ساعة ؟
وفوجيء آنذاك. كانت الهام قد سألته ، وكان لم يمض على وصولها دقائق ،عما اذا كان بوسعه ان يعطيها بعض دروس في الترجمة العملية ، بعد ان قرات في « الفكر الحر » بعض مترجماته ، وكانت شديدة الميل الى القيام ببعض الترجمات . وسارعت توضح له انها حدثت في ذلك اخاها حسان ، فلم يجد أي مانع ، ولكنه امل الا يكون التعويض مرتفعا .
وذكر هو ، وما تزال الافترارة على شفتيه ، كيف انه تقصد التريث والبطء في اعطاء الجواب ، بالرغم من انه لم يكد يسمعها تطرح سؤالها حتى كان قد وافق عليه في أعماقه . ثم أجابها :

كتابان خطيران

عارنا في الجزائر لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب

ـ لا أستطيع منذ الآن أن أحدد التعويض .
ثم صمت . وأحس بنظراتها تسائله ان يوضح ، فقال :
ـ ان هذا يتوقف على مقدرتك في الترجمة .
ـ تقصد أن ...
ولم تتم ، فأتم هو :
ـ اذا كنت مجتهدة ، فلن أتقاضى منك كثيرا . اما اذا ...
وتوقف يبحث عن الكلمة ، فلم يجدها . وظل لحظة قبل ان يقول :
ـ اما اذا عذبتني .... فسيكون الاجر مرتفعا .
وسمعها تقول ببسمة :
ـ ارجو ألا أعذبك .
ونظر في عينيها يريد ان يستشف منهما مغزى عبارتها ، فلم تشفا له عن شيء . لقد نطقت بها بكل بساطة وبراءة . ارجو الا أعذبك . ارجو ان أرضيك . أرجو أن ... وقال لها :
ـ سيكون الدرسان الاولان مجانا . وبعد ذلك نتفق .
واحس بالرضى لهذا الحل الذي وقع عليه . هاتان الساعتان ستكونان كافيتين لمعرفة الجو وجس النبض . وسنرى بعد ذلك .
وحدثته عن رأيها في روايته التي سبق أن اهدى اليها نسخة منها. وقالت ان سلوك البطل سلوك لا أخلاقي حاولت الرواية ان تبرره وتعطف عليه القاريء ، اما البطلة ، فقد رأت انها قد نالت ما تستحقه حين استجابت لوعود البطل الخادعة فاستسلمت له . وأضافت تقول :
ـ ان الرواية تعطي فكرة سيئة عن الشرقي وتعطي فكرة أفضل منها عن الغربي .

وظل صامتا لا يعلق بكلمة ، ثم سمعها تساله :
ـ هل أغضبك رأيي ؟ ألست تفضل الصراحة ؟
فابتسم وقال :
ـ ما الذي حملك على الاعتقاد بأني قد غضبت ؟ لا يا عزيزتي ..
ونظر اليها قبل ان يتم ، فالفى ملامح الاطمئنان تعاود وجهها .
ـ غير اني اراك تنضمين الى اولئك الذين يفضلون ان نتجاهل عيوبنا ونتستر عليها ، على ان نكشفها ونعرضها لمبضع الجراح .
ثم التفت اليها يقول في هدوء :
ـ قد تكون حداثة سنك وضعف تجربتك في الحياة هما اللذان جعلاك تكونين هذا الرأي . ولكني أستطيع ان اؤكد لك ان السلوك الذي اتبعه بطل روايتي هو سلوك معظم الذين يقصدون الغرب من شبابنا .
فبانت الدهشة في عينيها . واستطرد يقول :
ـ انني اذن لم أعالج حالة شاذة .. ثم ان الشعور الذي تخلفه الرواية لدى القاريء ، هذا الشعور الذي وصفته بانه تبرير لذلك السلوك وتعطيف للقاريء عليه ، انما هو صادر عن ان السلوك بحد ذاته هو سلوك بشري ، وان لم يكن انسانيا . ولكن ألا ترين البطل ، في المرحلة الجديدة من حياته ، يحاول ان يغير سلوكه هذا ، فيرتفع به من « البشرية » الى « الانسانية » ؟
قالت الهام وهي تلوي بين أصابعها ورقة مطوية :
ـ ولكن ما ذنب تلك الضحية التي خلفها وراءه ؟
قال : ـ هذا موضوع آخر. مع العلم بأن كل تغيير يفترض بالضرورة ضحايا ...
قالت : ـ لا ادري . ان رأي أخي حسان هو على اي حال موافق لرأيك . وعلى هذا كان خلافنا في الرأي .
فابتسم وقال :
ـ يبدو لي أن أخاك هو أعمق تجربة منك في الحياة ..
قالت وكأنما تعتذر :
ـ طبعا . انه يكبرني بعشرة اعوام على الاقل .
وأحس أنه يتردد لحظة ، ثم يقرر ان يفوه بها :
ـ لا شك في انك « مادة خام » ، تقبلين على الحياة بسلاح واحد هو العلم . فانت بحاجة بعد الى ... التجربة .
وشعر بأن ما قاله كان كافيا لانفاذ الايحاء الذي كان يقصد اليه ، وأدرك ان أية كلمة أخرى ستفسد عليه الامر ، فالتزم الصمت ، وراح ينظر الى الهام وهي ما تزال تلوي الورقة بين اصابعها كأنها تتأمل هذا الذي فاه به . ثم رفعت اليه عينيها تقول :
ـ لا بد من ان أعبر ، على اي حال ، عن اعجابي باسلوب الرواية . ان لك قلما ...
وأعجزها ان تجد الوصف ، فاستعاضت عنه بقولها :
ـ لقد قرأت الرواية في سهرتين ...
ثم أضافت باسمة :
ـ وأرقت في الليلتين !
ـ لمصير البطل ؟
ـ بل لمصير البطلة الضحية !
وضحكا معا ، فأحس الجو ينفرج . ثم التفت الى النافذة وأومأ بأصبعه عبرها :
ـ هل بدأت الدروس في الاكاديمية ؟
ـ منذ يومين .
ثم أضافت : ـ لقد انتهت فرحة الصيف في بعلبك .
ـ والعاصمة ... أتراك لا تحبينها ؟
ـ في العام الماضي ، كنت ملتحقة بمدرسة « البروتستانت » ، فلم أحب بيروت .
وقال ، من غير قصد محدد هذه المرة :
ـ ستحبينها هذا العام .

* *

دخل عليه ضياء ، بعد ظهر اليوم التالي ، وهو يقول :
ـ ألا تشعر بهذا الحر الخانق ؟ لكأننا ما نزال في منتصف آب !
فأجابه : ـ لقد شربت منذ ساعة حتى الآن ثلاث زجاجات من الرطبات ..
ـ هذا طبعا لن يخفف احساسك بالحر ، بل سيزيده !
وأضاف ضياء :
ـ أعتقد على أي حال أن منزلي في هذا الحر أفضل من هذا المكتب. من أجل هذا تراني قاصدا الى البيت في هذه اللحظة .
ـ وسمير ، ألم يأت بعد ؟
ـ لا ، لقد اتصل بي تلفونيا يخبرني بأنه لن ينزل الى المكتب بعد ظهر اليوم بسبب هذا الحر .
وابتسم لضياء ورفع يده مودعا . ثم شعر من جديد بقميصه ملتصقا بظهره وصدره . واقترب من النافذة ، فهبت عليه لفحة من نار . ونظر الى بناء الاكاديمية ثم نظر الى ساعته : الخامسة . لا تزال هناك ساعة . ونادى خادم المكتب فصرفه وهو يقول انه غير محتاج له اليوم . وحين أدرك ان المكتب أصبح خاليا الا منه ، أحس بنفحة من برد

فتاة في المدينة ..

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

دار الاداب — في السوق

تسري في غرفته ، وتنتقل الى جسمه وأوصاله . وشعر بأن العرق يجف على جسمه رويدا رويدا .

وفوجيء بالهام تدخل عليه قبل الموعد بنصف ساعة ، مرتدية ثوبا خفيفا يكشف عن عنقها وذراعيها ، وقد جمعت شعرها الى خلف وربطته بشريط أخضر . فوجيء بها لانه لم يرها الا واقفة بالباب ، كأنما أقبلت تمشي على رؤوس أصابعها . وحين نهض مرحبا ، سارعت تقول :

ـ جئت قبل الموعد لان استاذ المادة لم يحضر .

ـ لعل ذلك بسبب هذا الجو ؟

ـ ربما ... انه حر خانق .

وجلست على الاريكة المقابلة لمكتبه ، وهي تضع كتبها الى جانبها ، وتتناول منها المجلة الفرنسية . وقالت بعد لحظة :

ـ أعتقد انك لن تجدني تلميذة لامعة .

قال : ـ مهلا . لا تستعجلي الحكم على نفسك . سوف نرى .

ثم سألها : ـ أتريدين ان نبدأ الدرس على الفور ؟

ـ كما تشاء .

فمد ذراعه يطلب المجلة الفرنسية والاوراق المطوية داخلها . وقرأ بضعة أسطر من النص الفرنسي ، وفيما كان يقرأ مقابلها في الترجمة ، رأى الهام تقترب ثم تدور حول المكتب فتقف الى جانبه من غير ما حرج، تاركة كفها على الطاولة في لامبالاة . ورفع عينيه ينظر اليها فسألته :

ـ قل لي : كيف وجدت الترجمة ؟

فسارع يقول :

اوه ! لم يتح لي بعد أن أكون رأيا . ان الامر يحتاج الى وقت اطول ..

قالت : ـ طيب . تفضل ..

قال : ـ وانت ؟ ألا تتفضلين ؟ أتظلين واقفة هكذا ، أم آتيك بذاك الكرسي ؟

ورآها تنتفض فجاة ، كأنما تنبهت في تلك اللحظة فحسب انها قريبة منه ، ثم تراجعت متمتمة ، مشيرة بأصبعها انها ستجلس هناك على الاريكة . ولكنه كان قد نهض وحمل الكرسي ، فيما كانت هي تعود الى مكانها السابق .

وابتسم في رباطة جأش ، وهو يقول :

ـ انك تتخلين عن تلقائيتك حين تعودين لتجلسي بعيدا هناك .

قالت وفي عينيها حيرة يشوبها بعض خوف :

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد أنك كنت طبيعية جدا حين جئت تقفين هنا الى جانبي لتنظري معي في الاصل والترجمة .

قالت وعيناها تستردان بعض اطمئنانهما :

ـ آه .. ولكني أفضل الآن ان أجلس هنا .

قال وهو يمد لها النص الفرنسي :

ـ حسنا . اقرئي أنت النص الاصلي ، وسأقرأ أنا الترجمة ، ثم نقابل بينهما .

فرآها تستوي في جلستها وقد زايلها كل اضطراب وتبدأ بقراءة العبارة الاولى . ولكنه أدرك بعد ان قرأ العبارة المترجمة انه كاد ينسى معظم كلمات الاصل، فتململ في مقعده ، ورجاها ان تعيد قراءة العبارة . وتمكن من استيعاب جميع الكلمات تقريبا ، فقارنها بالنص المترجم وأبدى بعض الملاحظات حول اختلاف يسير في معاني الكلمات ودقائقها . وحين قرأت العبارة الثانية واراد ان يقابل بها النص المترجم ، نسي أكثر كلماتها ، فقال في لهجة أحس انها كانت تحمل نبرة استياء واضحة :

ـ المعذرة .. ان ذاكرتي السمعية رديئة جدا . فلا بد لي من ان أرى النصين معا .

قالت : ـ عفوا . وانا كذلك اشعر اني اضيع بعض تصحيحاتك ..

ثم نهضت ثانية واقتربت منه تقول :

ـ أتسمح لي بأن أجلس الى جانبك ، لاتابع النصين معا ؟

فنظر الى عينيها السوداوين ولم يجب . ورآها تقترب فتمسك بالكرسي ، وتبعده قليلا عن كرسيه ، ثم تجلس على حافته بتحفظ ، وتضع كفها على المكتب . ولمح ذراعها تمتد الى يساره ، بيضاء ناصعة تشوبها بعض شامات سوداء . وأعاد تلاوة العبارة الثانية في الاصل والترجمة ، مشيرا بخط قلمه على كلمتين لم تكن ترجمتهما دقيقة . وتناولت هي ورقة فأخذت تسجل بعض الملاحظات . وحين عادا الى المجلة الفرنسية ، أحس ان رأسها في انعطافها فوق المجلة كاد ان يلامس رأسه ، ثم ابتعد رويدا رويدا ، وابتعدت معه الكف والذراع وورقة الملاحظات . وأدرك بعد هنيهة ، انه لم يكن يستطيع الامتناع عن تأمل تلك الذراع البضة ، فيما كانت اليد تسجل بعض الكلمات . كان ينظر اليها في تشوف وانجذاب ، منذ ابتدائها لدى الكم القصير الضيق ، حتى انتهائها بالاصابع الدقيقة الممسكة بالقلم . وكانت تلك الشامات الثلاث السوداء تشد نظرته بين الفينة والفينة حتى لتكاد تفرقه في الشرود ، لولا ان الاصابع كانت تقف ، فتعطيه اشارة التنبه لمتابعة القراءة .

وقابلا بضع عبارات اخرى صحح بعض كلمات فيها وسجلت هي بعض ملاحظات . ولكنه فوجيء ذات لحظة بيدها اليسرى تغطي ذراعها اليمنى لدى الكم ، ثم تلامسها وهي هابطة حتى الساعد ، كأنما تود ان تخفيها . وأدرك انها لا بد قد فاجأته يتأمل ذراعها فزادت احساسا بعريها . ولم ينظر الى وجهها ، خشية ان يراه مصبوغا بالدم ، ولا الى عينيها مخافة ان يراهما مغتلمتين . وعاد ثانية الى المجلة الفرنسية ، والى اوراقها القريبة ، وشعر انه لم يكن يقوى بعد على الامتناع عن اختلاس النظرات الى كفها التي تكتب ، وذراعها التي ما تزال اليد اليسرى تمر عليها وتلم بالنهد الصغير الذي تستند اليه كأنها تلتمس مستراحا لديه . اما عيناها ، فقد ظل يتفاداهما ، حتى أحس بأنهما قد أصبحتا بعيدتين ، كأنهما تنتميان الى جسم آخر ، غير هذا الجسم القريب منه ، هذا الجسم الذي ينبض كفا وذراعا ونهدا .

وأحس بعد لحظات أن شفتيه كانتا قريبتين فجاة من تلك الذراع . ولم يدر أكان هو الذي مال بوجهه عليها ، أم انها هي التي دنت منه في حركة من حركات الكتابة . ولم يدر بعد ذلك الامست شفتاه الذراع ، أم ظلتا هكذا قريبتين بعيدتين . ولكنه فوجيء بيدها تلك تنفرج أصابعها فتترك القلم يسقط على المكتب ، فيما هي ترتعش .

وحين رفع عينيه ، كانت الهام قد أدارت رأسها ونهضت ، فلم يتح له ان يرى وجهها . ورآها تتجه الى الاريكة فتتناول كتبها في بطء ، ثم تلتفت اليه فيلمح وجها ممتقعا لا يعرفه ، ويسمعها تقول في صوت واهن:

ـ اعذرني . انني أضيع لك وقتك .

وأدرك في ارتعاشته انه لن يستطيع ان يجيب بشيء ، فظل جالسا على كرسيه ، كأنه قد سمر اليه ، ورآها تخرج دون ان تخلف خطاها وقعا .

ـ ١٤ ـ

أمطري ، أمطري ما تشائين ، ولتسل منك الجداول أنهارا ، ولتمتلىء الآبار ، وليعتصم المشاة القليلون بهذه المظلات الصفيحية تقيهم سهام السماء تهطل مدرارا . أمطري ، أمطري ما تشائين ، بالرغم من ان الشتاء لم يحل بعد ، فنحن ما نزال في اوائل الخريف ، ولم تكد الاشجار تتعرى من أوراقها . ولكن ألم تلفحي الدنيا ، بالامس القريب ، اسواطا من نار لم يعرفها الصيف في ابانه ؟

فلتمطري ، ولتمطري ، وحذار أن تحسبي خاصة أن بوسعك ان تغسلي شواظ الحر الذي يلفح جنبي ويفري احشائي ! ان في أعماقي لنار قلق لاهبة لن تطفئها رياح مهما اشتدت ولا أمطار ، ولكنك اذ تمطرين مع ذلك وتمطرين ، وأنا أرقبك من خلف نافذتي ، استشعر قليلا من عزاء ، عزاء النار ان تجري حولها الانهار .

واشتد التهطال ، كأنما تستجيب السماء لندائه ، وراح يتأمل خيوط المطر تسيل على زجاج النافذة متلاصقة متلاحقة ، لا تكاد تدع له ان يلمح خلالها أشباح الابنية القريبة ، ولا ان يميز بينها بناء الاكاديمية ، هذا الذي انطبعت صورته في بؤبؤ عينيه لفرط ما حدق اليوم اليه ، حتى اوشكت ذاكرته ان تضيع ملامحه . أتراه اليوم قد استقبلها ؟ أتراها قد

هبطت هذا الصباح من بعلبك ، هازئة بالعواصف والامطار ، أم تكونين يا سيازيب السماء قد حبستها بين أعمدة القلعة الشامخة في مسقط راسها ؟

اذن ، فستظلين يتيمة هذا اليوم ، يا حروف الرسالة الصغيرة اللاهثة التي تنتظرها في الاكاديمية . ستظلين ملقاة على مكتب الناظر تهتفين باسمها طوال هذا المساء ، حتى اذا انطفأت اضواء قاعات المحاضرات ، وأغلق الناظر الابواب دونك ، أغمضت عينيك مع الظلام ، لتستفيقي صباح الغد مع النور ، فتعودي الى الهتاف باسمها : «سأنتظرك هذا المساء في مكتبي » .

اما اذا قصدت المعهد هذا اليوم ، فانك يا حروف الرسالة الصغيرة ، ستحسين بارتعاشة أصابعها وهي تتناول المغلف الذي فيه ترقدين . ولن تشعري باليتم على اي حال . ستظلين لحظات تنعمين بدفء راحتها ، او هي ستخفيك في جيب معطفها ، او من يدري ، ربما ارقدتك في صدرها ، وآنذاك ستحسين نبض نهدها الصغير ، ولعل بعض حروفك ستحترق بجمرة حلمتها المبرعمة ...

رحماك يا سماء ، ولتكفي ساعة عن البكاء ! انك اذن ستتيحين لكلماتي ان تحيا تحت ناظريها ، وستنعشين الامل في أن أراها هذا المساء ...

ولكن ما يدريك انها ستأتي ، حين تقرأ كلمتك ؟ أتراك غدوت تعتقد انها باتت طوع اشارتك ؟

لا ، لست اعتقد ذلك ، ولكني اعتقد ان لي الحق بان اراها واحدثها واسالها سبب فرارها مني ذلك المساء : اي ذنب تراني قد ارتكبت بحقها ؟

ولماذا لم تسالها ذلك حين تركتك ؟ أليس التزامك الصمت اقرارا منك بانك لا بد ان تكون أسأت اليها ، وانك لم تجد ما تبرر به موقفك ؟

لست أدري لماذا صمت ساعتذاك ، ولماذا لم ألحق بها ...

ولكن أصدق نفسك القول : ألم تلامس شفتاك ذراعها ؟ ألم تظل عيناك تحدقان طويلا في تلك الذراع ؟

لست أدري ، لست أذكر ... كل ما أدريه الآن أنني بحاجة الى رؤيتها . وسأظل هنا في انتظارها حتى تطفأ مصابيح الاكاديمية ، ويطفأ معها الامل في رؤيتها .

ومن خلف زجاج نافذته ، ظل يصيص النور في بناء الاكاديمية ، بين العواصف والامطار ، أملا يشع في أعماقه .

وحين انطفأ ذلك النور ، كانت الساعة قد قاربت التاسعة .

وبقي في مكتبه دقائق ، وهو ما يزال يحدق عبر النافذة ، تخطف بصره بين الفينة والفينة بروق باهرة ، وتدوي في سمعه رعود قاصفة ، ثم يصغي الى صوت المطر يصفع الزجاج ، عنيفا تارة ، رقيقا تارة أخرى .

ثم ارتدى معطفه ، وتناول مظلته ، واطفأ النور في مكتبه ، ثم خرج بعد أن أغلق باب الشقة ، ومضى يهبط السلم وهو يشعر ان المطر يهطل في قلبه .

الخارجي ، وجدها واقفة لدى ركنه الايسر ، مبللة الثياب ، ما تزال والم بمقهى البناية ، فالفاه ما زال فاتحا أبوابه . وحين بلغ الباب قطرات من المطر تسيل من شعرها على وجهها ويديها اللتين كانتا تضمان الى صدرها الكتب .

وقال وهو يسمع خفق صدره :

ـ الهام ، انت هنا ؟

فلم تجب الا بعينيها السوداوين . واقترب منها ينظر الى شعرها ووجهها وملابسها ، ويرى الى رعشة خفيفة تنتاب يديها .

ـ ولكن ثيابك مبللة جدا يا الهام ... وشعرك ..

قالت بصوت ضعيف :

ـ نعم . لقد ادركني عارض قوي من المطر قبل ان أصل من الاكاديمية ...

قال في لهجة ملهوفة :

ـ ولكنك لا تستطيعين ان تظلي واقفة هكذا ... لا بد ان يلحقك زكام شديد .

ولم ينتظر جوابا ، بل مد يده فتناول الكتب منها ، ثم أمسك بيدها اليمنى ، واستدار ، وحين مر بالمقهى ، طلب فنجانا سريعا من الشاي ، ثم رقي السلم على عجل ، وهو يحس بانها منقادة له .

وحين أضاء النور في مكتبه ، لمح في يدها الاخرى منديلا يكاد يقطر ماء . فسارع يأخذ من معطفه منديله ويناولها اياه وهو يقول :

ـ جففي به شعرك ووجهك .

ورآها ترتمي على الاريكة ، كأن بها ارهاقا ، وتأخذ تمسح شعرها ببطء . وانتقل الى مكتب شريكه سمير فعاد منه بالمدفأة الكهربائية وقال لها :

ـ بضع دقائق فقط ، ويجف ثوبك .

فاومأت برأسها شاكرة وعلى شفتيها ظل ابتسامة . وسلط عليها المدفأة وهي ما تزال تمسح وجهها بمنديله . ولمح يديها ترتعشان ، فاقترب يسألها :

ـ أتشعرين ببرد يا الهام ؟

فأغمضت عينيها دون أن تجيب .

ـ لحظات ويسري اليك دفء الآلة الكهربائية .

وشعر بالارتباك اذ أدرك انه قد لا يستطيع ان يعينها على ما تشكوه من برد . ثم زاد احساسه بالارتباك اذ رأى وجهها يمتقع ، ويديها تزدادان ارتعاشا . وسمعها تقول ، وهي ما تزال مغمضة العينين :

ـ انني أشعر ببرد شديد .

ولم يتردد لحظة ، فجلس الى قربها على الاريكة ، ثم أدنى المدفأة الكهربائية حتى أحس لسع لهيبها على خديه . وتناول يدي الهام وجعل يفركهما بين يديه . ثم شعر بذراعه تحوط كتفيها ، فيما ظلت يده الاخرى تدلك يدها . وسمع صوته يتمتم :

ـ لا بأس عليك يا الهام . ستدفئين بعد لحظات ، ستدفئين بعد لحظات .

وحين شعر بأنها تستسلم لضمته ، خيل اليه انه يمسك بين يديه عصفورا مقرورا ، مبتل الريش .

وساعدها على ارتشاف الشاي حتى لاحظ ان خديها يستردان لونهما رويدا ، وظلت تشرب الشاي وهي مستندة الى ذراعه الحانية . وحين ادارت اليه عينيها بنظرة عرفان وقالت له : « شكرا » سحب ذراعه خلف كتفيها ، ونهض على مهل ، فأبعد المدفأة الكهربائية قليلا وهو يسألها :

ـ اما تزالين تشعرين بالبرد ؟

فأومأت بعينيها نفيا وراودت شفتيها بسمة خفيفة ، ثم قالت :

ـ الحق على رسالتك ...

فسألها في لهفة :

ـ اذن ، لقد جئت تلبية لها

قالت كأنها لم تسمع كلامه :

ـ لولاها لما أصابني هذا المطر كله ...

ثم كسا ملامحها طابع قسوة وأضافت من غير ان تدع له مجال التعليق :

ـ لماذا دعوتني مرة أخرى ؟ كنت قد صممت ألا أجيء الى المكتب بعد الزيارة الاخيرة ...

وقبل ان يفتح شفتيه ، استطردت تقول :

ـ بعد درس الترجمة الاول !

وأدرك في لهجتها ظلا من سخرية ، فداخله شعور من خجل . وحين قالت له :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

أمسى على يقين مما كان في شك منه : لقد لامست شفتاه ذراعها عامدا .

وسمع تمتمة شفتيه :

ـ المعذرة يا الهام . يبدو ان ذلك كان أقوى مني . سامحيني .
فعادت له عيناها السوداوان . والآن ، حسبي انحناء . لقد اعترفت واعتذرت . فلاسألها بدوري ، في شيء من اللؤم :
ـ وانت ، كنت مصممة ألا تجيئي بعد ...
قالت ببراءة ، وهي تسلط يدها على المدفأة بصورة آلية :
ـ لقد كتبت لي أنك تنتظرني . ومن بعيد لمحت ضوء غرفتك .
أترى ما أتفهه وما أحطه ، سلاح اللؤم هذا ؟ انها اصفى نفسا وانقى روحا . فلتنحن ثانية ولتقل :
ـ شكرا يا الهام . ان مجيئك يتيح لي أن أصحح الخطأ .
وسادت فترة صمت . ثم سألها :
ـ هل مكثت وقتا طويلا عند زاوية الباب الخارجي ؟
ـ ثلث ساعة تقريبا .
ـ وهل كنت تنوين ان تنتظري وقتا أطول ؟
هأنت ذا تعود الى الاحراج اللئيم !
ـ لم أطرح هذا السؤال على نفسي .
وألفى نفسه يدنو ثانية من الاريكة فيجلس الى جانبها ، ويسألها بلهجة أرادها ان تحمل اللطف والاخلاص :
ـ ولماذا لم تصعدي الى المكتب ، تجنبا للبرد ؟
فقالت ، وقد انفرجت أساريرها :
ـ كنت ما أزال أخاف منك .
فضحك وقال :
ـ والآن ؟
ـ الآن ، يجب ان أعود الى البيت .
ونهضت بخفة ، وأمرت يدها على شعرها ، ومدت له منديله شاكرة.
وحين بسطت كفها لتصافحه ، جرؤ على ان يقول لها :
ـ هل تسمحين بأن أوصلك الى البيت في هذا الجو الممطر ؟
فالت : ـ لا . أخشى ان يرانا أحد .
ـ لن يرانا أحد اذا ركبنا سيارة تاكسي ، وترجلت على بعد قريب من البيت .
فلم تجب . وأسرع يطفيء المدفأة الكهربائية ، فاتجهت الهام الى الباب بطيئة السير . وعند مدخل البناية ، انتظرا دقائق ، فلم تمر سيارة . وقال لها :
ـ أخشى ان يعاودك البرد يا الهام ...

قالت : ـ الافضل اذن أن نسير على الاقدام .
فقال : ـ لا مانع عندي . شريطة ان تضعي معطفي على كتفيك .
ولم ينتظر جوابها ، بل ألبسها معطفه ، وفتح مظلته ، ومضى بها تحت المطر .
قالت وهي تحت خطوتها :
ـ لا بد ان يقلقوا علي لتأخري .
قال : ـ ولكن هذا المطر ...
وصمتا برهة ، ثم سمعها تقول في عذوبة :
ـ كنت ، وانا صغيرة ، أحب المطر كثيرا . اذكر اني كنت أخرج الى شرفة بيتنا في بعلبك ، وهي شرفة لا سقف لها ، وأقف تحت المطر دقائق ودقائق ، حتى تفتقدني أمي ، فتدخلني ولا توفرني من عدة صفعات !
فضحك وقال :
ـ كنت الآن اذن بحاجة الى بعض الصفعات !
فانفجرت الهام ضاحكة ، ثم قالت :
ـ ما يدريني : ربما كان هذا من مخلفات الطفولة !
فقال بلهجة تصطنع الجد :
ـ لا يزال لديك ، على أي حال ، كثير من خصائص الطفولة !
قالت : ـ هذا كلام يحتمل المدح والذم . فايهما تقصد ؟
ـ ستدركين قصدي اذا عرفت انني لم أكد أعرف في حياتي مرحلة طفولة ..
ـ ولماذا ؟
ـ لقد القوني ، وانا ما ازال طفلا ، في مرحلة لا يدخلها الا الشباب .
فلزمت الصمت ، كأنما تحاول ان تتمثل ذلك . وقال :
ـ ربما رويت لك هذا فيما بعد . ولكن أتمي انت الآن : ما الذي كنت تحبين ايضا في طفولتك ؟
قالت : ـ اوه .. ان اكثر ما أحببت وانا صغيرة : الثلج .
واستطردت بعد لحظة :
ـ تصور أني كنت أقضي الساعة والساعة ، وانا جالسة خلف النافذة أتأمل الثلوج تتراكم في السهول حول بيتنا ، وتعلق بالاشجار ، وتكسو النبات . وحين كبرت قليلا ، كنت كثيرا ما ألح على أخي حسان أن نخرج لنخوض في الثلج دون ما غاية ، وعلى غير هدى .
ثم أدارت اليه عينيها السوداوين وقالت :
ـ لعلك تضحك اذا عرفت اني كنت أحب ايضا ان آكل الثلج !
فلم يضحك . كأنه لم يسمع ما قالت . أو كأن الذي كان يفكر به لا يحتمل التوقف لدى هذا التفصيل . ثم سألها :
ـ والآن ، ألا تزالين تحبين الثلج ؟
قالت : ـ في العام الماضي ، كرهت بيروت . ان أرضها تكاد لا تعرف الثلج .
ولم يقل شيئا .
وأنت يا سماء : أتراك ستظلين تبكين مطرا يتحول الى جداول تجرف الاوحال والاوشاب ؟ ألن تكفي لحظة عن الهطول ؟ أليس بامكانك ان ترسلي لنا صابا من ثلج أبيض يغمر أقدامنا لحظات ؟
وتوقفت الهام عند منعطف . ومدت له المعطف وهي تقول :
ـ أشكرك . وينبغي ان أتركك هنا . ان البيت على خطوات .
وحين مد يده يصافحها ، سألته وهي تحدجه بطرف عينها :
ـ متى يكون درس الترجمة الثاني ؟
ففوجيء بالسؤال . ولكنه ما لبث ان ابتسم :
ـ متى تشائين يا الهام .
فاستدارت . وغيبها المنعطف .
وأحس المظلة تثقل في يده . فأغلقها ومضى ، وهو يحس المطر يهطل على رأسه ووجهه وثيابه .

سهيل ادريس

في الاسواق

أبيات ريفية

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

الثمن ٣٠٠ ق.ل ـ ٣٧٥ ق.س

دار الآداب